الادب الوطني في لبنان ، رغم قدرته على تفتيت الاحلام الكبيرة ، ورغم الطابع المتحول في مضامينه واشكاله ، لم يستجب للحرب ، وعانى من انعدام قدرته على الاستجابة ، وقد اعلن ذلك بنصوص كثيرة · كانت الحرب بالنسبة اليه ، زمنا انفجاريا ، انعطف عن الزمن السابق بما لا يكفي من المقدمات · وهكذا بقي الادب الوطني في تشكيله ومضامينه استمرارا للادب السابق ، رغم ان طموحه الرئيسي كان على الدوام ، يتمثل بالرغبة في تغيير المنطلقات ، مما يدفع الى الانسجام مع الجماهير وحركة التغيير السياسي الراهنة ·

الادب الانعزالي والثقافة الانعزالية كانا على الخلاف من ذلك · لقد استطاع هذا الادب ان يزيح عن كاهله ارثا كبيرا · هذا الارث هو السمة المثالية المطلقة للثقافة ومن ضمنها الاعمال الادبية · الثقافة الانعزالية استطاعت ان تنتقل فجأة ودفعة واحدة من طور الى طور · فالثقافة القديمة ـ ثقافة السلم ـ كانت تتشبث بالمنطلقات الجمالية والسحرية· وقد تم الانعطاف ، دفعة واحدة ، مع ثقافة هي ثقافة الشارع المحارب · لقد انحدر الشعراء والادباء والفنانون في المناطق الانعزالية الى الحرب ، باعتبارها حالة استعداد وعيش شاملتين ، وتخلوا ، بما يشبه المفاجأة عن المنطلقات التي حددت اعمالهم القديمة ·

وقد يتسائل السائل عن هذه المفارقة : كيف لم يستطع الادب الوطني ، رغم انطلاقه من منطلقات انسانية مخولة ورغم المراحل المتحولة التي عاينها في تاريخه الاخير ، كيف لم يستطع ان يتحول مع الحرب · بينما استطاع الادب الآخر المثقل الكاهل بالارث القديم والممتنع عن التحول ، ان يتحول دفعة واحدة الى التفاصيل الدقيقة للصراع ·

ان الاجابة على هذه المفارقة تنبع من البنيان الثقافي والنفسي لكل من الاديبين · فالاديب الوطني كان منسجما مع الثقافة التي ينتجها ، وكانت الثقافة المنتجة تحمل طموحاته وقضاياه وتعبر عن انتمائه السياسي والنفسي ، لقد كانت تلك الثقافة تعبر عن الحلم المتحول في شخصيته ، فانسجم معها ، دون ان تتشكل كبعد اضافي من ابعاد وعيه، بينما كان الاديب الآخر « ينهل » من معين قديم غير متحول ، وتعني الثقافة بالنسبة اليه محاولة للتوحد مع المجرد ، لهذا كانت تؤدي الى الانسلاخ عن الواقع الراهن · كانت بعدا اضافيا غامضا من ابعاد وعيه ، يتم الاندماج معه في الحالات الصوفية · بينما تركيبه الباقي ، « وعيه الحقيقي » يسعى في مسار آخر · كان الخاضع للايديولوجية الانعزالية مزدوجا بين ثقافته من جهة وعيشه من جهة اخرى · وكان العيش يخزن يوما بعد يوم احتجاجات وغرائز فجرتها الحرب دفعة واحدة · كانت الحرب بالنسبة اليه لحظة تنفجر فيها الغرائز ، كانت تعطي الجرأة على قول ما لم يكن شرعيا قوله · لهذا قال في ابانها ما لم يكن يعتقد مرة انه يشكل موضوعا للفن ·

السؤال الثاني الذي ينبثق عن هذه المفارقة ، يأتي من التشابه الكبير بين النتاجات الثقافية التي انتجت تحت وطأة هذه العلاقة · لقد قال الشعراء والادباء والفنانون قولا واحدا في المناطق الخاضعة للسيطرة الانعزالية · يشعر القارىء او المشاهد انه يرى الى شيء واحد · فليس من فارق بين تلك النتاجات الثقافية حتى في التفاصيل · لقد انطلق المثقفون المنتجون هناك من نفس القناعات وتوصلوا الى نفس اليقين · ولا نستطيع ان نرجع هذا التشابه الى المعين الواحد الذي نهلوا منه قبل الحرب ، اذ رغم انه واحد ومتشابه ايضا ، فانه لا يفضي بالضرورة الى تغييرات متشابهة حين يتم تجاوزه ، التغيير او الانعطاف قد تأخذ مسارات متعددة ، او قد يبعثر الادباء كل في اتجاه · ولكن ما حدث،